



كان يوماً مطيراً .. كما هذا القلب الصغير يتدفق منه ينبوع الدم في عرقٍ ضجَّ من صبيب النَّزف ..

فجلست أحذِّ بترقبٍ إلى ذاك الزجاج الأملس، كان يشبه مرآة الروح لا شيء فيها يكذب أو يلُون الحقيقة بغير ألوانٍ ظهورها وانكشافها

ونسيتُ الزمن الذي مضى بغير اعتبارٍ لتلك الأفكار المشحونة في رأسِي يحمل هموم الدنيا في ذاكرةٍ مُثقلة..

ونسيت المكان الذي ضاق ذرعاً بكلِّ شيء حتى بذلك الجسد المَكْدُود من العمل ومن بُعْدِيَةٍ ملكت النفس والرؤاد في طلب العلم وتحصيل الرزق ..

ونسيتُ أشياء كانت في الزمن الماضي يسيرة المنال أملكتها بإشارة الإصبع، حين كان إيماني بِجَدِّي لا بِكَدِّي هو الغاية والمطمئن، وحين كان الجُدُّ يحثُّ الخطى على المسير لبلوغ الهدف الأسمى، وال فكرة تشقُّ طريقَها لترى النور ولها حياةٌ وجودٌ لا ينْهَى..

وخلف كل هذا النسيان الذي كنت أمارس طقوسه في تلك اللحظات التي تمضي كنت أشعر بأنني أقترب أكثر فأكثر من اجتلاع معاني السعادة الحقيقية، التي تكمن في إحكامِ غلقِ الباب والرِّتاج، واعتكافِ النفس في خلوتها بعيداً عن موضوعات الفتن، وصَبَّ الحياة المُتَرْفَة بملأاتها الساقطة، لتسْجُدي العَفْو والمَغْفِرَة في مُناجاَةِ الخالق في زمِّنٍ قصير، قد يمتدُّ

بإنسان امتداد ما يحقق له الارتفاع الوجوداني والشعور بلذة العبادة، تصله بتأثيراتها وأنعكاساتها البعيدة المدى في الحضور والغياب، وفي السر والعلن، ويظهر ينبع عنها التر في الصدق والإخلاص في التوبية النصوحه والإفلال عن الذنوب والآثام، وفك قيود استعباد المادة وإغراء الجمال الخالي من جوهر معناه، والبحث والتّنقيب داخل دفائن النفس ومكوناتها لسبر أغوارها والتقطاط دُرّها ونفائسها ..

وهذا الشعور بالانتشاء بالسعادة، كفيل بأن يفسح للحاضر متكاً ومهاداً عبيريَّة الرونق، فتسأل النفس بذلك الشعور الخالي من كلِّ كدر وبحلولِ الربيع المُزهُر بأفانيِّنِ الورد ..

فما أجمل الحاضر .. حين يعتريه الهدوء، والقلوبُ متساندة كتلك البيوت التي تحجب عنها الشمس، ومتعانقة كفروع تلك الشجرة التي تضمُّ تحت ظلِّها الوارف الذكريات الجميلة، والرسائل الملفوفة بشرائط الحياة المتلونة بألوان الطبيعة، والكلمات المعلقة على عروشها ..

وما أجمل الحاضر.. حين تمتُّ تلك الفروع إلى شرفة البيت لتحدِّث ساكنيها عن أخبار الأرض، كأنها تعلم ما كان يجولُ بخواطرهم من أشواقٍ توئُّسُهم ..

وما أجمل الحاضر .. حين تشرق فيه شمس الصباح بعد غيابٍ طويلاً، وقد ملأ السماء بغمامٍ يرتدي لون السُّواد كأنه في حداد يعني الضوء الذي خبا في سرج الليل، وذاك القرص القمري يراقص المُقل فتلي العيون المُسْهَدَة نداء التكبير، فتصحو من رقادها حاملةً على أكتافها أحلام العابرين والمكدوبيين والمجاهدين في الحياة، وتلهج الألسنة بكلماتٍ تشقُّ طريق السَّالِكِين، وتصدح على أنفاسِهم بنشيد الكفاح، فتهزُّ الخطى لمتضي في طريقها المستقيم على الثبات، لا يتثنّى عن غاياتها النبيلة الشُّرُودُ في مراتع اللهِ والمُلَذَّات، لأن لهذا النُّورَ أسرارٌ يبتُّها في أنفاسِ الخلائق حتى لا تتوقف النبضات عن الخفقان ..

وما أحلاه من سفر .. تتنفس فيه الأماني شهقاتِ الروح الطَّاهِرة النقيَّة، حين ترسل شدوها في الفضاء، وتسبح في الأكوان وتأمل وتدبر، وتستنشق نسائم الحرية في حبات التراب، وفي ذرات الهواء، في أوراق الورد والأغصان، في العشب الأخضر حين يهيج في الحقول والبساتين، وفي قطرات السوقِي والأنهار والجداول، وفي تتممات الطيور ولغاتِ الحيوان، وفي معادن البشر ..

ليظل بين الأمس والحاضر حكايات لا تنتهي عند حدِّ السطور والرغبة في البوح بالأسرار لفكِّ عقدة اللسان ..  
ليظلَّ ذاك القلب الطفولي .. يحملُ في عيونه نجماتٍ تغازل الفرح وتطفئ حمرة الحزن، وعلى ضفاف الثغر البايسِ تغاريد صادحة تحرك مجرى الدم السَاكِن كسكون تلك الأوراق التي ترْمُقُ بطيتها الأبيض، و تستجدِي القلم ليكتب على سطورها ما حواه الصدر الخامد خمود النار المنطفئة بعد انصهارِ أذاب جليد الأحزان ..

موقع المسلم

المصادر: